نظرية النحو الجرجاني مقاربة بنائية لاكتناه العلاقة بين تحولات البنية وتشكيلها الدلالي

عبد الله عنبر*

ملخص

يأتي هذا البحث مقاربة بنائية تصدر عن فكرة مؤداها أنّ النحو الجرجاني يمثل منهجاً بنائيا قادرا على كشف استراتيجيات القراءة بغية تعيين مقاصد التحول الناتجة عن تغيرات البنية. ويظهر أن الجرجاني حاول إعادة السؤال المنهجي الذي يصدر عنه النحاة عندما تصدى لهجمة الذين يهونون من شأن النحو ويقصرونه على الرفع والنصب، فجاء النحو الجرجاني يشكل دعوة لإعادة النظر في المنطلقات الأساسية التي تبنى عليها أنظار النحلة. وصفوة القول أن منهج الجرجاني يختلف عن منهج النحاة؛ لأنهم ينطلقون من الشكل لفهم الدلالة وهو يعتمد على الدلالة لفهم الشكل. واتضح أن النحو الجرجاني يتوخى مطلبين: أولهما: يأتلف على أنه معيار مرجعي يظهر موافقة المنظومة للمستوى الصوابي أو انحرافها عنه. وثانيهما: يسعى الى استنباط القيم التي تنتظمها البنى العميقة في تشكيلها للإنجاز.

ويكشف هذا البحث أنّ الجرجاني توصل إلى ملاحظ ينادي بها علم اللسان الحديث فقد تشابه مع فردينان دي سوسير في نظرته إلى اللغة على أنّها نسق من العلاقات وجاءت نظرة الجرجاني لأنظمة العلاقات استشرافاً لمرايا التجلي التي تشع في تضاريس النص عبر مناطق درامية تؤلف نظمه.

وأبان هذا البحث أنّ النحو الجرجاني ارتقى إلى مستوى تنظيم البنية الأسلوبية توخياً لمقياس الحسن البياني وتوضيحاً للفراغات المعرفية الكامنة وراء الأبنية بغية الوصول إلى فرادة التشكيل المتخفية في طبقات المعنى. وتبين أنّ النحو الجرجاني تخطى المنظومة اللغويّة إلى معناها الجمالي وأصبحت المعايير تكون مفتاحاً لبيان الدلالات المستفادة من تنوع أشكال النظم. وقد وقع البحث في ثلاثة أبعاد: يتناول الأول: مفهوم النحو الجرجاني ويأتي الثاني بحثاً في النحو الجرجاني نحو منهج بنائي يتوخى دراسة علاقات النص ويظهر الثالث: النحو البلاغي بين تحولات البنية وتشكيل الدلالة.

المقدمـــــة

يأتي هذا البحث مقاربة بنائية تصدر عن فكرة مؤداها أن النحو الجرجاني يمثل منهجاً بنائياً قادراً على كشف تحولات البنى ورصد أشكالها المتنوعة وبيان طاقتها التأثيرية. ويأخذ هذا النحو مكانه على أنّه نظرية تعتمد على المستوى البلاغي في استخراج القوانين التي تسهم في هيكلة النص وبيان أثر تعدد الأشكال في تكوين الرؤية الأسلوبية. وتعدّ هذه النظرية خطوة متقدمة تدل على سبق الجرجاني في توجيه النظام اللغوي توجيهاً يعتمد المعنى ويظهر أهمية النحو وعلاقته بالدلالة، فهي ارتياد أفق جديدة في دراسة النحو العربي وتوضيح للأدوات المنهجية وتقنيات القراءة. وتستمد هذه التقنيات من تفاعل النحو والدلالة تفاعلاً يلتقي إلى حد بعيد مع مناهج النظر اللساني الحديث، وجاءت هذه النظرية ضمن نسق يتأمل علاقة الدال ويظهر قدرتها في التعبير عن المدلول عبر النظام الذي تنتمي إليه.

ومؤدى هذه النظرية رصد ما يجري للبنى اللغوية من تحولات في سياق الوظائف اللغوية التي تؤديها إذْ تقرأ أنظمة العلاقات قراءة تبدأ من القدرة الداخلية وصولاً إلى تراتيب الإنجاز ضمن أنساق تجري وفق المعنى المراد لها. وتمثل نظرية النحو الجرجاني كشفاً عن ارتياد

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان.
تاريخ استلام البحث ٢٠٠٠/١١/٢٣ ، وتاريخ قبوله ٢٠٠١/٨/٨.

المنظومة في ضوء منهجية تضمر عدداً من الأسئلة التي ترتد إلى نسق مداره أنظمة العلاقات إذ يقام النظام اللغوي في ضوء هذه النظرية على نسق من العلاقات التي تحتكم إلى تفاعل البنى في تحقيق التواصل النصي. وتشكل العلاقات تناسقا يفضي إلى حشد الإمكانات التعبيرية موافقة للغرض الذي يتطلبه السياق، ويقرر عبد القاهر الجرجاني هذا المعنى موضحا أن: " الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، نحو أن تقول في (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (منزل قفا ذكرى من نبك حبيب) أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان"[1] وهذا توظيف للقيم التعبيرية في تتابع خاص مداره وضع الألفاظ الموضع الذي ينبغي أن تكون فيه استجابة للمعنى الذي يريده المتكلم، وقد جاءت هذه النظرية محاولة لتفسير الدلالات المستفادة من النحو البلاغي في رصد تحولات البنية. وتقام دراسة النحو عند الجرجاني على علم المعاني بطريقة تكتشف العلاقات الداخلية من خلال امتحان تفاوت درجات المعنى واستجلاء المستوى الجمالي. وجملة القول أنَّ رائده في ذلك البحث عن الوظائف الجمالية التي تهيمن على توزيع تضاريس النص.

وأظهر الجرجاني في هذه النظرية المبادئ المتعالية التي تظهر أثر العلاقات في تشكيل نصوصية النص فكانت المقصدية والدلالة والتفاعل النصي من العناصر التي يتداح النسيج في فضائها. وهكذا بنى نظرية شاملة تراعي رصد فرادة الأداء بكشف منظومة البنى والمرجعيات التي تعيد إليها عبر اقتناص التحولات الجوهرية لهذه البنى، وجاء النحو الجرجاني تفكيكا يربط الأنساق بوظائفها التداولية ربطا يكفل بيان المناطق الإشعاعية في النص. ويتولى هذا النحو اكتشاف البنى التأثيرية موضحا أسرار تأثيرها في التشاكل على نسق خاص. ويصدر في منهجه عن الموقعية بغية تبيان طبقات المعنى انطلاقا من التراتب الموقعي وأثره في تشكيل الدلالة. والملاحظ أنَّ الجرجاني يمتحن المعالم الدالة على وجوه الإبلاغية بحثاً عما ترشده إليه من تكثيف إيحائي يرصد المكان الذي تلتقي فيه عناصر الدلالة الكلية انطلاقا من فكرة مؤداها أنَّ البناء الكلي هو المرجع الذي تصب فيه عوالم انبجاس الدلالة.

وجاء النحو الجرجاني إبانة عن تداخل الدلالات في سياج النظم الذي يعيد الأبنية إلى وظائفها مظهراً علاقتها بالمرجع. ويؤلف هذا النحو منهجاً لدراسة البنى العميقة التي يقيمها النص رصداً للقاعدة التي تحتكم إليها تضاريسه. إنه البحث عن المعالم المسؤولة عن تشكيل طبقات الدلالة وتنوعاتها. وغني عن البيان أنَّ هذا النحو يعتني بنظرية العدول عن المتصورات الذهنية المكونة للأصول المعرفية لاقتناص فرادة التفاعل وبيان الطرق المتحكمة به. ويشكل هذا النحو أدوات التحليل من داخل النص إذْ يتخذ لنقد النص منهجاً نابعاً من داخله يفكك عناصره ويلح على تصيد الإبلاغية عبر مناطق التحولات المؤسسة على الانتقاء المكون لكثافة الناتج الدلالي، وجاء بيان الجرجاني لأسرار الحذف قراءة للقيم التعبيرية التي تتوارى في طبقات النص. وتمارس الدلالة حضورها عبر غياب يعلن عن حضوره في إنتاج الدلالة. وقد أصاب حين ذكر أن: "الحذف باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[2] وهكذا يقرأ الفراغ المعرفي لبيان دوائر الغائب في اندماجها عبر المكاشفة المجسدة لسلطة النص. ومن هنا يتضح كشف هذا النحو لإشارات النص وبيان الوظائف المؤلفة للإطار المرجعي الذي يصدر عنها تشكيله. وبهذا يكشف عن مختلف وجوه النص لبيان أسراره الداخلية ويقرأ إشاراته لاقتناص تفاعلها الذاتي وانفتاحها على العالم.

وبين الجرجاني أن البحث عن العلاقات يشكل استشرافاً لمرايا التجلي التي تشع في تضاريس النص عبر درامية تؤلف نظمه. ويأتي البحث عن العلاقات مدخلاً

للتحليل النصي الذي يظّهر الوظائف ويكشف عن البنيات المشتركة المؤلفة للنسق، وبهذا يتصدى لبيان النظام الإشاري بحثاً عن فاعلية الدور الوظيفي لكل عنصر في تشكيل النص.

ويأتلف النحو الجرجاني في نظرية نسقية استطاعت توفير وسائل متعددة للنظر إلى مستويات النص. ويمثل جهازاً لسانياً يعتمد على الملاحظة والامتحان في دراسة أشكال البنى كشفاً للوظائف التي تؤديها. ويلاحظ أنّ المرتكزات المعرفية التي يصدر عنها هذا النحو تعنى بتفكيك أبنية النص وتفسيرها في ضوء نظرية العلاقات بحثاً عن القيمة الإبلاغية المؤثرة في تشكيل النسق. ويعود الفضل لنظرية النحو الجرجاني التي وضعت الظاهرة اللغوية ضمن أفق يظهر فرادة التشكيل في إعادة هذه الظاهرة إلى مكوناتها الأولية والبيان عن طرق تنظيمها ومؤداها الدلالي اعتماداً على سيرورة البنى. وجاء اكتشاف هذا النحو لتجليات الظاهرة موحداً ومنسجما مع شبكة العلاقات التي أسهمت في بناء الغرض المراد التعبير عنه. وهكذا يلاحظ أن الجرجاني استطاع إنتاج رؤية شاملة تضعنا في بؤرة المحورين: الأفقي والعمودي بحثا عن مظاهر الرتبة وطرق تماسك النص. إنه يرصد قوانين البنى مظهراً التماثل والاختلاف انطلاقا من دائرة رؤية تقبض على وحدات المعنى موضحة دور الإبلاغية في أداء المقصد. وبهذا يصلنا بوظائف اللغة الناتجة عن التشكيل المتناسق الذي يمارس سلطة الفرادة في الخروج عن المألوف لإنتاج المعنى. ويسعى هذا النحو لارتياد أفق التشاكل والاختلاف لقراءة الأبنية وبيان طرق تنظيمها وأثر علاقتها المتبادلة في تشكيل النسق. ومن هنا يتضح أنه تحقق لهذا النحو امتلاك الأدوات القادرة على تحليل مستويات الأبنية ضمن إطار بنائي مفاده النظم الذي يوجه حركة الكلمات مظهراً أثر الإبلاغية في تكوين النسق.

وهكذا يأتي هذا النحو كشفا للمسائل اللطيفة وتفسيرا للمعاني الدلالية الناتجة عن ترتيب النص واختيار عناصره وتوزيعها في نظام علاقات خاص بها. ومن هنا استطاع الجرجاني أنْ يرصد التمايزات لتعيين قيم التماثل والاختلاف توخياً للمقصد الذي تنظمه طبقات المعنى. ويلاحظ أنه اعتنى في تحليل عناصر المنظومة اللغوية بما يكشف بناءها الطبقي. وقد توصل إلى تعيين الهيكل البنائي لروابط الكلم مُظْهراً أن اكتشاف القوانين المعيارية يشكل وجهاً من وجوه استقراء النظام اللغوي. ويبدو أنّ النحو الذي يدعو إليه الجرجاني هو نحو كلي يبحث طرق التواصل ويتصدى لأسئلة المعرفة المتصلة بمجهول البيان.

وصفوة القول أنّ هذا النحو يشكل دعوة لإعادة تنظيم دراسة البنى وفق اكتشاف لفعل البلاغة فهو طريقة لامتحان التركيب من وجوهه المختلفة وبيان الوسائل التي أسهمت في تنظيمه. وهكذا يظهر تحولات النص موضحا طرق الجذب الإشعاعي التي تسيطر على فضائه عبر ملاحظ التفرد وكسر التوقع. ومن هنا فإن كشف علاقات التجاوز يسهم في بيان مستوى التخفي الكامن في تضامن الكلمات وتفاعلها داخل نسيج النص. ويعتني هذا النحو بدراسة الدلالات الإيحائية الناتجة عن تحولات البنية ويرصد ملاحظ المفارقة للأصل اللغوي ضمن تحولات تكسب الأبنية تأثيراً خاصا يحرك المرجعيات النفسية بتصديع العلاقات المألوفة. وتؤلف دراسة البنى الأسلوبية استشرافا للأنساق التي تختزنها البنى العميقة في تنظيمها لأنماط الإنجاز اللغوي. ويمد هذا النحو أفق الرؤية لينظم الأشكال المتعددة وفق سمات خاصة تكشف النشاط الدلالي الذي تنطوي عليه الأبنية. ويتبين لنا أنّ دراسة الرتبة وتكوين النسق وطرق التباين تؤلف منهجية قادرة على تشخيص الظواهر الأسلوبية التي تكون طبقات المعنى. ويقدم الجرجاني مثالا تطبيقيا يظهر أثر التقديم في تشكيل المعنى بقوله: "فإذا قلت (أ أنت فعلت ذلك؟) أو (أفعلت ذاك؟) كان توجه السؤال في الجملة الأولى عما إذا كان هو الفاعل أم لا، والسؤال في الجملة الثانية عن الحدث"[٣] وبهذا تكون معاني النحو تنظيما خاصا يقتضي ترتيب الكلمات في مستويات الدلالة. فمرونة اللغة التي تتجسد في تبدلات الرتبة تخرج العناصر من سكونها لتكسبها إشعاعا

خاصا ناتجا عن حالات التحول وطرق إعادة إنتاج النص. وينظر إلى حركة تبدل العناصر اللغوية على أنّها تحول يؤدي إلى خلخلة البنية موافقة لمقتضى الحال واستجابة للإبلاغية.

وهنا نشير إلى أنّ النحو الجرجاني يجسد دعوة لإعادة تنظيم دراسة الأبنية في ضوء البلاغة وبهذا يضع إجابة للفراغ المعرفي المتحصل بين البلاغة ونحو النص. ويأتلف هذا النحو انطلاقا من نظرية العلاقات التي أقيمت على التواصل بين المستويين النحوي والبلاغي استجابة لدراسة ما تشف عنه الأبنية من تشاكل واختلاف، فالكلمة تكتسب الجمال البلاغي عبر وجودها في نظام علاقات يمنحها وجها خاصا من الحسن البلاغي وفق مراعاة لأسرار النظم. ويظهر الجرجاني المعيارية في اختيار الألفاظ وفق نظم للمتشابهات بقوله: "وهذا باب ينبغي أن تراعيه، وأن تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه"(٤) وهكذا يتم البحث من خلال هذا النحو عن المعايير التي ترتب الأبنية على وجه خاص تتعاقب فيه مؤلفة المقصد المراد. ويأخذ هذا النحو في دراسة تنظيم فضاء النص انطلاقا من بيان وجوه الإبلاغية التي يلجأ إليها المبدع في تشكيل النظام الإشاري المكون لتضاريس النص. ويأتي هذا النحو استشرافا للجامع الأساسي الذي تحيل إليه عناصر المنجز إذْ يكشف عالم النص الداخلي عبر تمثيله الذهني الذي يضمر المقصد وتجسده أشكال التعبير. والملاحظ أنّ هذا النحو يقودنا لامتحان مظاهر السلوك اللغوي انطلاقا من المقاصد التي يصل إليها الأفق السيميائي؛ إذ يبدو واضحاً أنّ ارتياد آفاق البنى ضمن تعدد الأدوات المنهجية يجعلنا نمدّ البصيرة في سياق واسع يكشف الوظائف التي يأتلف عليها النظام اللغوي.

ومن هنا يتضح أنّ استثمار طرق التفكيك والتأويل يؤدي إلى إعادة إنتاج البنى المعجمية لاكتناه تداعيات الدلالة وأثرها في تأليف مقاصد النص، ويصدر هذا النحو عن البنية المفتاحية في استشرافه طرق التشكيل الأسلوبي التي ينطوي عليها النص. إنّه دراسة للوظائف التي تنتظمها البنى امتلاكاً للوظيفة الدلالية الكبرى التي يبنى عليها النسيج النصي.

وبهذا يقرأ الأنساق تقصيا للإبلاغية التي يحققها تراسل البنى استجابة لمظاهر الانتظام الراجعة لشبكة العلاقات. ويؤسس أحكام النحو على الاقتران والاستناد إلى وظائفية اللغة توخيا لنسق بنائي يرصد النظام الدلالي الذي تؤديه هذه الوظائف عبر شكلها النظمي. وهكذا يبني النحو الجرجاني على استنطاق الأبنية وتفكيكها وبيان وظائفها وتفسير طرق تماسكها على نحو خاص يحقق الإبلاغية المؤسسة على النظم. ونعرض لنظرية النحو الجرجاني ضمن ثلاثة أبعاد تتشكل على النحو الآتي:

أولاً: مفهوم النحو الجرجاني.
ثانياً: النحو الجرجاني نحو منهج بنائي يتوخى دراسة علاقات النص.
ثالثاً: النحو البلاغي بين تحولات البنية وتشكيل الدلالة.

أولاً: مفهوم النحو الجرجاني

أراد الجرجاني الاتساع في أفق المفهوم النحوي فنظر إليه على أنّه بيان للمستوى الوظيفي ورصد للتخطيط الذي يستجلي ما بين العناصر من علاقات خفية ينتظمها الإيحاء والتشبيه والاستعارة. ويشكل علم المعاني المرجعية التي يصدر عنها الجرجاني في الإبانة عن منهجه في درس المعاني الإضافية للنصوص، إذ يقرأ الدلالة من خلال تتبع درجات المعنى في ثوابتها الأصولية وتغيراتها التحويلية. فقد أوضح أثر الدلالة في اكتناه المستوى الجمالي للوجوه البيانية الناتجة من داخل نظام العلاقات. فالأسرار البلاغية تضيء النص من الداخل وفق معان أسلوبية يجسدها التقديم والتأخير والحذف والزيادة. ويكشف تباين درجات المعنى وفق التحولات التي تتعرض لها البنية في تقريره أن: "قولهم: عبد الله قائم: إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله

قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر"[٥]، إنه يؤسس منهج الدراسة على بيان أثر مستويات الدلالة في تشكيل الخطاب. ويختار النقطة المؤلفة لنصوصية النص إذ تتلاقى أنساق المنظومة على مرجع خاص بها تنتمي إليه في تشكيلها الدلالي. ويسعى هذا النحو لتأسيس رؤية تشكل طريقة للقبض على الوحدة الدلالية الكبرى التي تحكم المقصد مظهرة وظائف البنى في تشكيل النسق وتكون هذه الوحدة مسؤولة عن التراسل المتبادل بَيْنَ العناصر المكونة للنص. وبهذا يفصح عن أسئلة تفرض البحث عن نقاط الجذب والاستقطاب التي تمارس سلطتها عبر آفاق التحكم الذاتي لمنظومة الأبنية. وهكذا تكون وظيفة النحو الجرجاني الكشف عن البنى النهائية المنظمة لنصوصية النص.

وقد انتفع الجرجاني بالأنظار النحوية السابقة عليه التي جاءت على هيئة إشارات تدل على وعي العلاقة بين النحو والدلالة، ولعلّ التقديم والتأخير والحذف والزيادة من الأبواب التي تذكر بتفطن النحاة لأثر تحولات المبنى في تشكيل المعنى. وهكذا أخذت هذه الملاحظ عند الجرجاني منحى معرفياً جديداً إذ اعتنى بنظرية العلاقات بطريقة تجعل منها مفتاحاً يرصد تأثير التحولات الأسلوبية في تغيير المعنى. فلم يغفل عن الجهد الذي قدمه النحاة ولكن جاءت محاولته من باب التركيز على تقليب الظاهرة اللغوية من وجوهها المختلفة توخيا لبيان تجليات المعنى، فكانت الدراسات النحوية السابقة عليه ترمي إلى معيارية تضبط المستوى الصوابي في النظام اللغوي، وتحصل لها مرادها.

وقد لاحظ الجرجاني أنَّ النحو يتفاعل مع المعنى تفاعلاً يصدر عن فكرة مؤداها أن النظـــم يسهم في إدراك القيم الجمالية من خلال اكتناه التوزيع والإسناد والتعريف والتنكير والفصل والوصل إلى غير ذلك من القيم البلاغية. فالصياغة لها أثر في بناء التركيب وفق المعنى الذي أريد له. وهكذا تؤلف المعاني النحوية الإطار الذي يضع الألفاظ في مواضعها توخيا لأسرار التعبير البياني. ويبين وظيفة النحو على أنها تفاعل بين الشكل والدلالة يتجلى في تحليل عناصر النص واستثمار مكوناته لبيان علاقتها بالدلالة الكلية. ويستدعي هذا الفهم لوظيفة النحو تحليل المنظومة اللغوية بإرجاعها إلى نظامها الداخلي الذي صدرت عنه. ويلتقي ما توصل إليه الجرجاني في بيان مفهوم النحو مع الأنظار اللسانية الحديثة إذ يقرر كريستل أنه:" يجب أنْ لا تنظر إلى النحو على أنَّه مجرد طريقة لإعراب الكلمات لتفتيت الجمل إلى أجزاء ثم إعادة تصنيفها وإنَّما لابد أنْ ينظر إليه باعتباره وسيلة نحو التفسير النهائي لتعقيدات التركيب اللغوي، فإذا نظرنا إليه تلك النظرة الخلاقة فسيصبح أكثر معنى وقيمة"[٦]. والذي يبدو واضحاً أنّ النحو عند الجرجاني يتحرك من منظور منهجي يعيد الدلالة الكلية إلى وحدات أصغر منها تنتظم لتأليف النسيج النصي.

وهكذا يتصدى لتحليل النظام اللغوي موضحاً فاعلية الدور الوظيفي الذي يعطي كل عنصر قيمته الإبلاغية تحقيقاً للتماسك النصي. واتّضح للجرجاني أنَّ النحو يتوخى مطلبين:

أولهمـــا: يأتلف على أنّه معيار مرجعي يظهر استجابة المنظومة اللغوية للمستوى الصوابي أو انحرافها عنه.

وثانيهما: يسعى إلى استنباط القيم التي تنتظمها البنى العميقة في تشكيلها للإنجاز.

وقد حاول الجرجاني إعادة السؤال المنهجي الذي يصدر عنه النحاة عندما تصدى لهجمة الذين يهونون من شأن النحو ويقصرونه على الرفع والنصب، وجاءت مراجعته المنهجية ناتجة عن إدراكه بأنَّ النحو يفهم بصورة خاطئة، ولعلّ هذا الملحظ قدح في نفسه رغبة في تعديل تصورهم بطريقة تشكل نقطة تحول في دراسة النحو العربي، فصاغ مفهومه مُظْهِراً زهد هذه الجماعة بالنحو إذ شبهته بالملح الذي يؤخذ منه بقدر يصعب تجازوه، وظنته ضرباً من التكلف، ويقرر هذا الملحظ بقوله: "أما النحو فظنته الطائفة ضرباً من التكلف، وباباً من التعسف، وشيئا لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل وأنَّ ما زاد

منه على معرفة الرفع والنصب، وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضلة لا يجدي نفعاً، ولا تحصل منه على فائدة وضربوا له المثل بالملح"[٧]. وهكذا ردّ الجرجاني على الذين يضعون النحو في دائرة حرجة، وأبان عن قصده الذي يتجسد في مدّ أفق النظر النحوي بطريقة تعد علامة الإعراب مكونا تنظيميا يتحد مع غيره من الأبعاد لتأليف النص، فلم يقتصر المستوى النحوي على ضبط الظاهرة اللغوية من بعد واحد، وإنَّما أصبحت علامة الإعراب تمثل مرحلة من مراحل اكتناه العلاقات الداخلية التي تحكم النص. وبهذا يتضح أن: "النحو الذي دافع عنه ليس هو ما يتعلق بالشكل الإعرابي، ولا هو الوقوف عند تقسيمات الجمل وبنائها ذلك البناء الذي تحدده القواعد، بل ينبغي تجاوز ذلك إلى البحث عن المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة التي تقف وراء إيثار لفظة على أخرى وتفضيل تركيب على آخر. ومن ثم راح عبد القاهر يتتبع علاقة اللفظة بالتي تليها وعلاقة الجملة بغيرها من الجمل وإيثار التنكير على التعريف في موضع وإيثار التعريف على التنكير في آخر والتقديم هنا والتأخير هناك"[٨] وهكذا ينفي الجرجاني أنْ يكون النحو أسيراً لقرينة الإعراب معزولة عن المعنى الذي تدل عليه. ويؤلف هذا التوجه اتساعاً في نظرية النحو بحثاً عن الصورة الكامنة وراء التعبير اللغوي. ومن هنا يتبين لنا أنَّ النحو الجرجاني جاء محاولة لصياغة النحو العربي ضمن إطار بلاغي يظهر فرادة التشكيل إذْ تكتسب نظرية النحو الجرجاني دلالة خاصة في تشكيلها نموذجا قادراً على تخطي التقاليد المألوفة في النحو العربي، وتظهر نزعة التمرد جلية في تصريح الجرجاني الذي يناقض المفاهيم السائدة في نظرية النحو العربي إذ يقرر أن: "العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالرويّة، فليس أحدهم بأن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه الجر بأعلم من غيره"[٩] وهكذا يرى أن النحو لو اقتصر على هذا الفهم لما وقع فيه تمايز في العلم. هذا هو التمرد الذي يخلخل الفكرة السائدة ويقدم منهجاً يفوق ما تتفق عليه الأنظار النحوية في بيانها عن مفهوم النحو.

ونشير هنا إلى أنَّ الجرجاني لم يكتف بالنظام المعرفي الذي تداوله النحاة فجاء منهجه تخطياً نحو البنية العميقة المرتبطة بمعنى المعنى، وهذا يمد دائرة المعاني النحوية لتشكل معياراً جمالياً قادراً على استجلاء أسرار الإعجاز؛ لأنَّ: "طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم أنَّها معدنه وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وألا وجه لطلبه فيما عداها غار نفسه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع"[١٠] فقد نظر إلى معاني النحو على أنها نقطة الانطلاق التي ترتب البنى وتسهم في بيان العلاقة بين البنية السطحية والعميقة تشكيلاً للمنجز اللغوي. فهي توظيف للرموز يوضح فرادة التشكيل ويعلي من قيمة الصياغة المكونة للنسق. وتؤلف هذه المعاني معياراً يظهر التمايز ويكشف مراتب النظم موضحاً المستوى الأسلوبي للعبارة.

والملاحظ أن النحو الجرجاني يسعى إلى تحليل النص على أنَّه علاقات تهيمن عليها سلطة النظم التي ترتب وظائف التواصل لإقامة أنحاء النص، إنه يدرس فعل الإنتاج اللفظي لتفكيك بنية التفاعل الدلالي وربطها بالمقام الذي ولدت فيه. وبهذا يبحث أثر التعالق النصي في إنتاج المجال الدلالي الذي تتداح فيه العناصر موزعة على الأنساق المتحكمة في الفضاءات النصية، ويسهم هذا النحو في بيان الملامح التي ينماز فيها النص عبر تعالقه البنائي وتشكله خلال تراسل علاقة الدال بالمدلول. وهكذا ينهض هذا النحو لدراسة الدلالة القابعة عبر تضاريس المظهر اللفظي الذي يمليه التمثيل الذهني في تشكله على هيئة إنجاز. وتأتي عناية هذا النحو بتفكيك البنيات بهدف اكتناه المدار المشترك الذي تتلاقى عليه عناصر التعالق النصي، وهنا يتضح أنه يعاين التمظهر النحوي موضحا علاقة العلامات بالمضامين التي تشير إليها، وينطوي النص على منظومة علامات يسهم انتظامها السلوكي في تكوين طبقات المعنى خلال بنية التواصل التي تمثلها أنساق التعبير.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنَّ النحو الجرجاني يمثل دعوة إلى إعادة النظر في المنطلقات الأساسية التي تبنى عليها أنظار النحاة. ويوافق هذا المنحى دعوة معاصرة مؤداها أن:" النحاة حين قصروا النحو على أواخر الكلمات وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طريقاً منحرفة إلى غاية قاصرة، وضيقوا كثيراً من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة. فطرق الإثبات، والنفي، والتأكيد، والتقديم والتأخير، وغيرها من صور الكلام قد مروا بها من غير درس إلا ما كان ماسا بالإعراب، ومتصلاً بأحكامه، وفاتهم لذلك كثير من فقه العربية وتقدير أساليبها"[١١]. وهكذا جعل الجرجاني مراده أن يأخذ النحو مكانه في امتحان الظاهرة اللغوية فلا بد أن يقترن ترتيب العناصر بالأصل الدلالي الذي تبنى عليه. ومن المؤكد أن انتحاء سمت معاني النحو يكون قاعدة تتحرى ضبط القانون اللغوي وصولاً للعلاقة بين المعنى والمنجز الذي تأسست عليه. ومن هنا يتبين أن عبد القاهر الجرجاني:" اهتم بالنحو لا لذاته ولا لإعرابه، ولا لتحديد أنواعه وكلماته، بل لوضعه وترتيبه من تقديم وتأخير، وتمييز وتوكيد، ومن هنا تنقلب هذه العلل نكتا بلاغية تستحق أنْ تدرس على أنها بلاغة، وتتخذ لها مكانا خاصا بها لتحتسب في باب العلمية وتدون تحت اسم علم المعـــاني"[١٢]. وغني عن البيان أن الجرجاني ينظر إلى معاني النحو على أنها مجموعة قوانين تكتسب مرونتها من اتساع اللغة في قواعد التقديم والتأخير والحذف والإضافة بغية استجلاء الوظائف التي تصدر عنها هذه التحولات.

وبهذا يتضح أن معاني النحو التي يقصدها الجرجاني:"ليست هي القوانين المعيارية التي يتحتم أنْ تتحقق في أي كلام لكي يكون كلاما، ولكنها المعاني التي تحدث الفروق بين أسلوب وأسلوب، وبين نظم ونظم، إنَّ قوانين النحو المعيارية هي بدورها قوانين وضعية لا تفرق بين كلام وكلام، شأنها شأن دلالات الألفاظ المفردة. وليست المزية التي تحدث في الكلام فيما يرى عبد القاهر الجرجاني بمجرد علم المتكلم بتلك الفروق التي تحدثها المعاني النحوية، العلم وحده لا يكفي، ولابد من القدرة التي تمكن المتكلم أو الشاعر من استخدام هذا العلم وتوظيفه توظيفاً مؤثراً دالاً".[١٣]

ومن المعلوم أن النحو الجرجاني يستدعي قراءة الأبنية قراءة تتعدى المستوى الصوابي بحثاً عن مستويات البيان وأسرار التمايز. ويرى الجرجاني أنَّ المفهوم الأولي للنحو لا يشكل معيار تفاضل، ويلفت انتباهنا إلى هذا الأصل فيقرر:"أنَّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأنَّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنَّه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلاّ من يُنْكِر حسه وإلاّ من غالط في الحقائق نفسه"[١٤] ويبدي هذا التفسير الذي يشير إليه الجرجاني دعوة إلى إعادة النظر في البعد الوظيفي الذي يؤديه المستوى النحوي، فقد أدرك أنَّ النحو يتحرك في سياق ضيق لا يكاد يتخطاه فأراد أنْ يمدَّ وظيفته كشفاً عن الإمكانات التعبيرية الناجمة عن تحولات البنى. وهذا يظهر أنَّ الجرجاني أدرك أنَّ المستوى الصوابي أو غيابه يمثل مستوى منطقياً في رصد الظاهرة اللغوية. واتجه نحو تخطي هذا المستوى في بحث ملحاح مفاده: نشدان أثر العلامة في تشكيل مستواها الذهني وانحرافها نحو رسم مجال سيمائي خاص يشكل فرادة الأداء. وهكذا يبدو أنَّ هذا النحو يرفض أنْ يضع نفسه في إطار منطق النحوية وغيابها ولم يكتف بهذا الأفق بل اتجه نحو وضع مكانة خاصة لأنظاره النحوية إذ تندغم في آفاق البلاغة مكونة أنساقها ضمن منهج يكشف خفايا المنجز، وهذا يعني أنَّ هذا النحو يقدم استراتيجية تتعدى النظر الأولي في تحليل المكونات المباشرة وتقترح قراءة العلاقة التي تصل المكونات الأفقية بمستواها العمودي توخياً لإنتاج الدلالة الكلية. وانطلاقا من هذا الأساس يتولى هذا النحو بيان طرق التوزيع عبر تداخل النصوص مظهراً الفضاء الذي تنطوي عليه الملفوظات في تشاكلها واختلافها. ومن هنا يدرس هذا النحو عناصر الإحالة

لكشف البؤرة التي تتراسل العناصر في سياقها بحثا عن المتعاليات النصية واكتشافاً لتعالقها واستشرافا لوظائف الدال في أداء المدلول، ويتقصى تمظهر الملفوظات ويقيس صور انحرافها لبيان الغاية من حركة الفضاء النصي إذ تسهم هذه الانحرافات في رسم تضاريس البنى على وجه يكفل أسلوبية التعبير. والذي يبدو:" أنَّ النحو عند عبد القاهر لا يقصد الإعراب ولا اللغة،وإنّما يقصد (النحو الجمالي) إنْ صح هذا التعبير- وهذا النحو لا يهدف إلى موضع الفاعلية أو المفعولية مثلاً، إنما يهدف إلى موجبهما. وبعيد عن ذهن عبد القاهر أن يبدد كل جمال في سبيل هذا النظم المبني على مقتضيات علم النحو، كالجمال اللغوي، والجمال المعنوي، والجمال التقديري، المبني على الاستعارة والتشبيه، إنّما يريد منك مع إقراره بهذا الجمال الراجع إلى عدة نواح في البلاغة، أن تراعي معه النظم وتجعل الفضل له في النهاية؛ لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية[١٥]. ومهما يكن من أمر فإن النحو الجرجاني تخطى المنظومة اللغوية إلى معناها الجمالي وأصبحت المعايير تكون مفتاحاً لبيان الدلالات المستفادة من تنوع أشكال النظم. وبهذا يمتلك هذا النحو سلطة تكشف نظام الأنظمة الذي يحتكم إليه الفضاء اللغوي بكل توافقاته وتعارضاته المؤلفة لنصوصية النص.

وصفوة القول أنَّ منهج الجرجاني أوسع من منهج النحاة الذين يقصرون النحو على علامات الإعراب؛ لأنهم ينطلقون من الشكل لفهم الدلالة وهو يعتمد الدلالة لفهم الشكل، ويؤكد الجرجاني هذا المعنى بقوله:" إنَّ غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته والأساس الذي وضعته أنْ أتوصل إلى بيان أمر المعاني، وكيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها في كرم مناصبها من العقل"[١٦]. فهذا تفاوت في الرؤيا ترتب عليه اتساع دائرة النحو اتساعاً يكفل له أنْ يأخذ مكانه في بيان قوانين اللغة والإحاطة بأسرارها.

ولعل ما يقرره تمام حسان يمثل تفسيراً لاختلاف الرؤية بَيْنَ الجرجاني والنحاة إذ يرى أنّ:" النحو يجعل نقطة البداية هي المباني، وينطلق منها للوصول إلى غايته من المعاني، وذلك ما نلاحظه بوضوح في إعراب الجملة، إذ تبدأ بالمبنى وتنتهي إلى المعنى، أما علم المعاني فربما اتجه اتجاهاً معاكساً لاتجاه النحو، فبدأ من منطلق المعنى باحثاً عن المبنى، وهذا يعني في نظر معظم الدارسين وفي مقدمتهم العلامة عبد القاهر الجرجاني أن العلمين متكاملان بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر"[١٧]. وهكذا فإن النحو الجرجاني يغوص وراء البنية السطحية تقصياً لمنظومة العلاقات التي أفضت إلى ترتيب البعد الشكلي على نحو خاص. ويتّصل هذا النحو بعلم المعاني اتصالاً يستثمر تباين الأساليب في توضيح المعنى الذي تمليه تغيرات الرتبة.

ونشير هنا إلى أنّ الجرجاني يقيم عناصر تشكيل البنية على نسق من العقل وما تفضي إليه مستويات الرتبة في تأدية المعنى حيث يقول:" فليس الغرض بنظم الكلم أنْ توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[١٨]. وتلتقي هذه النظرة إلى مستويات البنية وعلاقتها بالنحو الدلالي مع أصل من أصول البنائية يقرره نهاد الموسى بقوله:" يقوم منهج التحليل إلى المؤلفات على مقولة مؤداها أن الجملة ليست خطاً أفقياً من كلمات متتابعة وإنّما هي نسق منظوم على نحو مخصوص"[١٩] ويكشف هذا المنحى أنَّ دراسة النص من منظور الجرجاني تعني النظر لعلاقة الدال بالمدلول وضبط تأثير علاقتها على تشكيل المتصور الذهني الذي تحتكم إليه الأبنية. وهذا يظهر أنَّ الإمساك بالمتصور الذهني الذي تنداح فيه تضاريس النص يفضي إلى الاهتمام بتجليات الأبنية كشفاً لوظائفها الدلالية. ويأتي هذا النحو توضيحاً للأساس الذي تحتكم إليه الأنساق وإظهاراً لوظائف الأبنية انطلاقا من دورها في تأليف الدلالة الكلية.

وقد اظهر الجرجاني أنَّ التركيب نسق من العلاقات يستبطن الطاقة التعبيرية ويحقق سمة الإبلاغ عبر اكتناه

العلاقة بين القاعدة النحوية وفحواها الدلالي وقد أفصح عن ذلك بقوله: "وليست المزية واجبة لمعاني النحو في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"(٢٠). وهكذا ارتقى النحو الجرجاني إلى مستوى تنظيم البنية الأسلوبية توخياً لمقياس الحسن البياني، وبهذا تكون معاني النحو المنطلق الأساسي الذي يضع الألفاظ مواضعها لتنهض معبرة عن النموذج المعرفي المراد بما يحقق جمال التعبير. وكان ملحظ الجرجاني للعلاقة بين معاني النحو والدلالة من الملاحظ الأساسية التي أقام عليها تشومسكي نظريته إذْ يقرر:"أنَّ البحث في الوظيفة الدلالية لبنية المستوى قد يكون خطوة معقولة في اتجاه وضع نظرية للتلاقي بين النحو والدلالة، بعبارة أخرى نريد من الإطار النحوي للغة الذي يفرزه ويوضحه نظام القواعد أنْ يكون قادراً على دعم الوصف الدلالي"(٢١) وانطلاقا من هذا الأساس فإنَّ النحو الذي أراده الجرجاني يتوخى امتحان علاقة الكلمات وفق الأصول التي تم اختيار البنى على أساسها. ويكشف هذا النحو عن مزايا التفاضل التي ينماز بها تعاقب البنى ويرجع إليها البيان. ويتضمن سلطة تتقصى تماسك عناصر النص وتعيد المعالم البيانية إلى أصولها بحثاً عن سياقها النظمي الذي تحتكم إليه.

وقد رأى الجرجاني أنَّ الغرض من قوانين النحاة إنتاج التراكيب وتمييز الأساليب ويعبر عن هذا المعنى بفكرة تكشف أنَّ معرفة مدلول عبارات النحويين هو المقصود وليس معرفة هذه العبارات، يقول: "إنَّ الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات: فإذا عرف البدوي الفرق بين أنْ يقول: جاءني زيد راكبا، وبين قوله: جاءني زيد الراكب، لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال: "راكباً" كانت عبارة النحويين فيه أن يقول في "راكب" إنه حال، وإذا قال "الراكب" إنه صفة جارية على زيد"(٢٢) وهكذا يبحث عن المستوى البياني الجامع لمستويات الدلالة كشفاً عن المقصد الذي تمثله الوظائف في تحولاتها الذهنية المكونة لمرجعيات المنجز النصي.

ثانياً: النحو الجرجاني نحو منهج بنائي يتوخى دراسة علاقات النص

يمثل النحو الجرجاني اجتهاداً ظاهراً يستشرف العلاقات الكامنة وراء الأبنية بغية الوصول إلى فرادة التشكيل التي ينتظمها التماسك النصي، والفكرة الأساسية التي يمكن افتراضها أنَّ النص الأدبي يؤلف بنية متكاملة تتفاعل فيها العناصر تفاعلاً يكفل لها آفاق الانتظام مع الوظائف التي تؤديها، وبهذا ينهض على هيئة إنجاز لغوي عماده العلاقات التي تتضمن الإيحاء والتأثير إذْ يقام على ثنائية التشابه والاختلاف التي تحكم إنتاج الدلالة. ويمتاز إنتاجها بكونه يتخطى تكوين الأفكار الجزئية وينظمها في وحدة متكاملة ويعنى النحو الجرجاني في مقاربة الأبنية موضحاً ترتيب أنماط العلاقات المكونة لتجليات البنية العميقة في تشكيلها للمعنى.

وينهض هذا النحو على قواعد الدلالة التي تكفل حركة تواصل البنى في تضامنها لتشكيل القوى الإيحائية المؤلفة لنصوصية النص. ويصدر عن مطلب ملحاح مفاده الانطلاق من الاستبدال لمغايرة أبنية الأصل وتكوين الفضاءات استجابة للمقصد. ويعتني هذا النحو بتحليل مستويات النص بلوغاً لما يخفيه من وظائف يحكمها نظام الأنظمة، إنه قراءة لطرق التشكل اللغوي لبيان دور النحو في بلوغ المقصد عبر التمثيل الذهني للمنجز، وتقتضي مواجهة دراسة البنى النحوية الاستفادة من علاقة التراسل توخياً لكشف أثر المعاني النحوية في تشكيل النص، إنَّ استشراف الآفاق التي يبنى عليها النص تفرض استغلال معاني النحو إظهاراً لطرق قيام العناصر بدورها الوظيفي في أداء المقصد. ويتقصى هذا النحو نظام الارتباط الذي يشكل اتساق البنى مظهراً تأثيرها في الإبلاغية عبر أشكال التضام والتقارب. وغني عن البيان أنَّ استثمار النحو الجرجاني يكشف قيمة الإبلاغية في التكامل التنظيمي الذي يؤلف المحتوى. ويوافي هذا المنحى النظر اللساني الحديث

الذي يقرر أن: "عملية إنتاج الخطاب- لا تتحقق دون مركبات. فنحن نتكلم بالمركبات والتأليفات، غير أنَّنا نغترف من تلك الثروة الباطنية (أي اللسان والنسق). إنَّنا ونحن نتأهب لإنجاز خطاب معين تتزاحم في ذاكرتنا الكلمات المشتركة في شيء ما، فنختار منها البعض ثم نتصدى لعملية التأليف، ومعنى ذلك أننا نختزن في أذهاننا أنماطاً من المركبات وأننا في الوقت الذي نرغب فيه في استعمالها، نفسح المجال أمام تدخل الترابط فنختار عنصراً بدل عنصر ويتشكل المركب".[٢٣]

وجاء اهتمام الجرجاني بدراسة الدلالة الكلية للنص في ضوء المعنى الذي تؤديه العناصر استجابة لمطالب النسق. ويعرف نظم الألفاظ على أنَّه:" تعليق بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض مع توخي معاني النحو بين الكلم، كي تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، وأنْ يشتد ارتباط ثان منها بأول، كي توضع الجملة في النفس وضعاً واحداً"[٢٤] فهذا يكشف أنَّ مدار التركيب تناسق الدلالات على وجه مخصوص يؤسس على مجموعة علاقات، فالطاقة التعبيرية تحكمها دوائر التجانس وترجع المزية لما بينها من تشابك. ويتبين لنا من ذلك أنَّ نظرية العلاقات التي يصدر عنها الجرجاني تقام على بعد دلالي تتلاقى فيه مجموعة العناصر خدمة للدلالة الكلية. وهكذا يتضح أن: "كل مستوى من مستويات العمل الفني يصبح تحولاً كلياً للمستوى الدلالي، وتصبح العملية النقدية في جوهرها عملية اكتناه للعلاقات المتشابكة والتفاعلات التي تنشأ من اختيار مركز معين من النص، وكشف لقدرة كل منها على تجسيد البنى الأخرى فيه وتجسيد بنيته الدلالية الأساسية النابعة من مركز معين"[٢٥] وهذا يعني أنَّ الاهتمام بنظرية العلاقات يؤدي إلى تفسير مستويات الدلالة لكل عنصر من خلال ارتباطه مع غيره؛ لأنَّ وجوده في سياق معين يفرض عليه مستوى دلاليا خاصا يفوق وجوده مفرداً، فأنظمة العلاقات قاعدة تضبط مجموع العناصر اللغوية المكونة للتركيب في ضوء وضع منتظم يقيم تفاعلاً بين النحو والدلالة تحقيقا للمقصد.

وقرر الجرجاني أن اللفظ المفرد لا يستقيم وحده وإنّما يدخل في سياق تتكامل فيه المفردات لأداء المعنى الكلي ؛ لأنّ:"الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن ينظم بعضها إلى بعض فيعرف ما بينها من فوائد، وهذا علم شريف"[٢٦] وهذا يعني النظر إلى النص وفق منهج يكشف الهيكلَ التنظيمي الذي تنتمي إليه عناصر النسق. ويؤلف هذا التوجه اقتناص الصورة النهائية التي تسيطر على الكل عبر قانون العلاقات وهذا يظهر أنَّ الجرجاني استطاع أنْ يعطي النحو طاقة شمولية تمكنه من معايشة النص ومعاينة أعماقه. وتحصل لنظرية العلاقات عنده سلطة معرفية مطلقة قادرة على بيان أي فراغ معرفي أو خلخلة نصية بتعيين مجالها الدلالي ووظائفها التداولية. وهكذا فإنَّ انكسار النسق يفسر في سياق إنتاجه الدلالي وتوخيه شروط الإبلاغية، ويبنى النحو الجرجاني على استنطاق اللغة عبر دوائر أبنية المفارقة لتوضيح طاقتها التعبيرية. ويوغل هذا النحو من خلال رؤية واعية تكشف طبقات البنى بلوغاً لما تضمره من كثافة في تكوينها اللغوي. وتأتي نظرية النحو الجرجاني قراءة لسلوك العناصر في بعدها الوظيفي إظهاراً لتفاعل الدلالات التي تكتسب قيمتها من فرادة التشكيل. وقد توصل الجرجاني إلى ملاحظ ينادي بها علم اللسان الحديث في أنَّ اللغة نسق من العلاقات وهذا ما يقرره سوسير بقوله:" فقيمة الكل في أجزائه كما أنَّ قيمة الأجزاء تأتي من مكانتها في هذا الكل أو ذاك، ولهذا فإنَّ أهمية العلاقة التركيبية بين الجزء والكل كأهميتها بين الأجزاء فيما بينها"[٢٧] وهكذا يصدر الجرجاني في نظرته للعلاقات عن مطلب يدرس الأبنية بغية الوصول إلى وظائفها توخياً لوعي المعنى عبر تقنيات تحكم أشكال النظم، ويمثل كشف أسرار البنى بحثاً عن هذه التقنيات المنهجية للقبض على التضاريس التي ترسم نسيجها ضمن مرجع يعين أنواع التواصل. وهذا يبدي أن نظرية العلاقات جاءت استراتيجية تكشف غنى وحيوية العناصر في إطار الكل الذي تنتمي إليه. وتأتي هذه النظرية توضيحا للأشكال التي تدور فيها

العناصـــر لتكوين حقولها الدلالية. ومن هنا ظهرت هذه النظرية على أنها نقطة تحول في مقاربة جملة العناصر ضمن النسق الذي تؤسسه العلامات اللغوية، إنها دراسة للموقع بطريقة تفكيكية تبين علاقة الرموز مظهرة فكرة المعنى في سياق تغير الأنظمة، وبهذا ترمي إلى تعيين القيم الإيحائية للعناصر بحثاً عن وظائفها الجمالية التي يستبطنها النص، ويلاحظ أنَّ اكتناه مدلول الإشارات يعيد إلى مرجعها انطلاقا من فكرة النسق التي تنظم العبارات في قيم تصورية ترجع إلى قواعد الدلالة، وتستخرج هذه النظرية المنطويات البنائية التي تحكم ائتلاف النسق موضحة الإطار الذي تنداح خلاله الكلمات ضمن ما يعرف بقانون النظم، إذ تتقصى هذه النظرية الإيحاءات الكامنة وراء صياغة الأبنية لبيان معنى المعنى وطرائق التشكل، وقد جاءت منهجية الجرجاني التطبيقية تفكيكا للبنى المؤلفة للنص وإظهاراً لمفرداتها في تكوين النسق، وخير ما يظهر هذه المنهجية بيانه عن الأسرار البيانية التي انتظمت الآية الكريمـــة (وفجرنا الأرض عيوناً)[٢٨] إذ يرى أن أسرار الجمال ترجع إلى أنّ:" التفجير نسب للأرض علماً أنه للعيون وقد حصل بذلك معنى الشمول، وذلك أنه قد أفاد أنَّ الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها، وأنَّ الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه وكان المفهوم منه أنَّ الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن منها"[٢٩] وهكذا تعين هذه المنهجية طبقات الكلام كاشفة القيم الأسلوبية إذ تنبه إلى أدوات البلاغة وامتحان الأساليب التي تستخدم في أداء الدلالة الكلية المرادة، إنّها ضرب من البيان عن تشكيل الاختيارات اللغوية ورصد انحرافها عن المألوف فهي بحث عن التأثير الذي يظهره تبدل الأنظمة في الإفصاح عن المعنى.

ومن هنا يتضح أن هذه القراءة تسعى لرؤية عناصر النص من الداخل في دراسة تظهر روابط الحدث اللساني عبر تراسل وظائفها تراسلاً تكوينيا يحتكم إلى الدلالة الكلية. والذي يبدو واضحاً أنَّ:" هذه الروابط لا يتصور وجودها وحدها، وإنما هي روابط هذه الألفاظ وترتيبها، وتشابكها، وتناسقها، وهذه الروابط وكيفياتها وما يقع فيها من اختيار هي التي تستخرج من ألفاظ اللغة دلالاتها، وهذا هو سر فعلها، وكأنها المفتاح الذي إذا أصبت به مدخلاً لطيفا للكلمة، أخرجت منها ما لم يخرجه غيرك ممن لم يصب منها هذا المدخل، والكلمة المفردة التي تراها في المعجم صامتة خرساء هي في الحقيقة منطوية على ذخائر من الأفكار والبراعة، إنَّما هي في استخراجه، وانطاقه واشاعته بواسطة العلاقات التي نسميها أحيانا سبكا ورصفا".[٣٠]

ومن الواضح أن المنهج الذي يقدمه الجرجاني يستند إلى هيكل تنظيمي مداره عدد من الاستراتيجيات التي تفسر علاقات الأبنية لملاحظة أثرها في تكوين المقصد. ويلاحظ أن الجرجاني يلتقط الأبنية ليكشف مواطن الإثارة فيها مظهراً اختلافها عن نفسها وفاعليتها في تأسيس المعنى. وهكذا يقرأ في الكلمة علاقات الانحراف وخروجها إلى آفاق غير متوقعة لبيان ظلالها الإيحائية وتمردها على علاقة الدال بالمدلول. ويأتي هذا المنهج توضيحاً للأنساق المتفاعلة لبحث أنماط الانزياح خلال شبكة العلاقات السياقية، وبذلك يُصنف الصيغ لسبر أغوارها وتبيان طرق إسهامها في تكوين المنجز، وينهج في تحليل الظاهرة اللغوية تصيد مناطق الاستقطاب البنائي المفصحة عن الفضاء الدرامي الذي تؤلفه بإرجاعها إلى النسق، ويتّخذ من هذه المناطق منطلقا يصدر عنه لبيان تعاليها وسيطرتها على روافد الدلالة توخيا للمقصد. ويتابع تفاعلات الدلالة وقواعد توزيعها بحثا لأثر التماسك في تشاكل الأبنية. ويمتحن الجرجاني في ضوء هذا المنهج المبنى في تمثيله للمعنى لبيان ما يرجع إليه من صور إيحائية. ويحرص على الانتقاء وفق منهج يقتطع الأبنية ويضعها أمام مرايا الاكتناه البنائي لقياس استجابتها للمقصد واكتشاف انتظامها في سياق النسق. وهكذا يسبر أسرارها الكامنة ضمن وعي حاد لتكوين البنى ورصد تفاعلها لتعيين وظائفها من خلال

السياق الذي تظهر فيه. وتسهم قراءة الوظائف التي تتولاها الأبنية في تأليف تصور للهيكل البنائي الذي تقام عليه عناصر المنظومة ويقام هذا الهيكل على التراسل الوظيفي الذي يرسم قانون البنى وينتهي بها إلى إنجاز الرؤية.

ومهما يكن الأمر فإنَّ النحو الجرجاني الذي يستند إلى نظرية العلاقات يرمي إلى دراسة الأنساق دراسة تظهر تفاعل الدلالات في تشكيلها الدور الإيحائي لكل عنصر بما يفصح عن تراتيب الأبنية وتحولاتها، وهذا يولد تفاعلاً عضوياً يتخطى المستوى الشكلي إلى التجسيد الدلالي، ويؤكد هذا المؤدى بقوله:"كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أنْ تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى، ومعنى القصد إلى معاني الكلم أنَّك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه، فلا تقول: خرج زيد؛ لتعلمه معنى (خرج) في اللغة ومعنى (زيد)، كيف ومحال أنْ تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف"[٣١]. ويكشف نص الجرجاني أن فهم المعنى الدلالي يتوقف على تراسل معاني النفس في تشكيلها لتضاريس النص، فالبنية التركيبية (خرج زيد) تتكون من عنصرين دلاليين يتضمن كل منهما معنى معجميا ويحتكم إلى باب نحوي، فكلمة (خرج) تقام على ظاهرة التلازم الإسنادي الذي يفرض عليها تطلب عنصر آخر لاستكمال المعنى. ويصدر العنصران عن نظام علاقات يتفاعل فيه المستوى النحوي والمستوى الدلالي تحقيقاً للمقصد. وتتفق نظرية الجرجاني في تفسيره للعلاقات مع النظرات اللسانية الحديثة إذ يقرر موريس أبو ناضر:"أنَّ قراءة المدونة كنظام تعني، كما يؤكد الألسنيون أن كل شيء في هذا النظام مترابط، فالعنصر لا وجود له إلا من خلال العلاقات التي يقيمها مع غيره من العناصر، لذلك فإنَّ استخراج القوانين التي تتحكم بالعلاقات التي تقيمها هذه العناصر بعضها مع بعض يعني استخراج البنية (STRUCTURE) أو البنيات التي يتكون منها النظام"[٣٢] ويبدو بجلاء أنَّ النحو الجرجاني يقام على رؤية ترجع الجمال إلى تناسب أجزاء البنية، وبذلك يتخطى الحدود الأولية التي تنتظم النص إلى نظرة بنائية تؤكد قيمة كل عنصر من العناصر وأثره الوظيفي في التواصل النصي، وبيان ذلك:"أنَّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين فأنت لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحذق والأستاذية وسعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة"[٣٣]. هذا الموقف يبين لنا أنَّ النحو الجرجاني يدرس المستويات التكوينية التي يتأسس عليها النص ويتقصى سيرورتها نحو الدلالة الكبرى المكونة للملامح الذهنية التي تشكل المنجز في صورته النهائية.

وبهذا يمكن القول:" ينبغي أنْ تفضي كل جزئية إلى التوغل في مركز الأثر الأدبي بناء على ما تقرر أنَّ لكل منها علتها وأنها تتكامل مع سائرها، فبذلك تتحقق رؤية التفاصيل في جملتها، ورب جزئية تأدى منها المرء إلى مفتاح الأثر الأدبي كله كما تشهد بذلك قدرتها من حيث هي مؤشر مشترك على تفسير ما نعلمه ونلحظه من الأثر"[٣٤] وانطلاقا من هذا الأساس نسجل أنَّ تكامل العناصر في نسق يفرض منطق علاقات يحافظ على أجزاء الكل ويقيم رؤية مدارها الفضاء الدلالي الذي تنجذب نحوه العناصر.

وبهذا يتضح أن هذا النحو يبدأ لعبة التفكيك لاكتناه أبعاد النص مرجعا هذه اللعبة إلى قواعد البناء والنظم. ويسهم في بيان أثر العلاقات في تشكيل المتعاليات التي تضيء الأنساق البنائية في إطار تهيمن عليه الفجوات والتعالقات النصية. وهكذا نجد أنَّ نظرية العلاقات تؤلف المنهج الأساسي الذي ينظر من خلاله إلى تعيين الأبنية التي تتحكم في مسارات النص. والأساس الذي تصدر عنه هذه النظرية اقتناص شبكة العلاقات وبيان ملتقى الوظائف النصية في تعبيرها عن المدلول. وتمثل هذه المنهجية ارتياد آفاق جديدة في قراءة الأبنية للقبض على أثر المتغيرات في تأليف ملاحظ التوصيل والإبلاغية. ويبدو أنَّ البحث عن جاذبية الاستقطاب التي تدور في سياقها وظائفية النص تسمح باكتناه مظاهر التعالق المكونة لتحولات البنية. وهذا يبدي أنَّ انتقال المستوى الذهني بين

مرجعيات الدلالة يرسم علاقة تطلع نحو اجتذاب مخزون المفردات المتلاقية ضمن حقل دلالة واحدة لاختيار الإشارة القادرة على التماسك النصي والانسجام. ويلتقي هذا الفهم لوظيفة النحو الجرجاني واتجاهات النقد الحديث إذ يبدأ الناقد: "عمله من معاينة النص ومحاولة استنطاقه وتأويله وقراءته وبيان تشكلات أنساقه إلى الكشف عن أدبية النص أو شعريته. إلا أنَّ الناقد لا يقف أمام هذا النص بوصفه وثنا قائماً بذاته، لا يمكن له أنْ يحيد عنه، إنَّه لا يتطلع إليه كشيء مكتف بذاته، بل بوصفه بنية جمالية واعية موجهة نحو الآخر:"القارئ والمتلقي في حوارية جدلية، صريحة أو ضمنية فبنية النص لا يمكن أنْ تجد حقيقتها إلا عبر عملية إيصال علائقية يمتلك فيه الآخر النص ويتلقاه بوعيه وبرؤياه الشخصية المشروطة اجتماعيا وثقافيا".[٣٥]

ويلاحظ أنّ الدلالة التي تكتسبها الكلمة عبر انتظامها في المجموع الكلي تختلف عن الدلالة المتحصلة للكلمة خارج الفضاء النصي، وقد تسنى للجرجاني أنْ يقرر:"أنَّ مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: (ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له) فإنك تحصل من مجموع هذا الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس"[٣٦] فهذا القول يظهر وعياً تراثياً قادراً على توضيح الدلالة المركزية التي تمثل محوراً تتلاقى عليه وجوه الانتظام. وتأتلف كل العناصر ائتلافا يشكل شرطاً في التوصل إلى الغرض الناتج عن مجموع الدلالات ضمن اتساقها البنائي.

والذي يبدو واضحاً أنَّ الجرجاني جعل معيار التفاضل تفاعل الألفاظ ودلالاتها في بنية تؤدي معنى وظيفيا، لأنَّ: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنَّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"[٣٧] وتبدي نظرة الجرجاني اتفاقاً لافتاً والأنظار اللسانية الحديثة إذ يرى ستيفن أولمان:"أنَّ الكلمات لا تعيش منعزلة في نظام اللغة، ولكنها تندرج تحت أنواع شتى من المجموعات والتقسيمات التي يرتبط بعضها ببعض بواسطة شبكة من العلاقات المعقدة غير المستقرة المتوغلة في الذاتية؛ علاقات بين الألفاظ وعلاقات بين المدلولات، علاقات بين التشابه أو بعض الصلات الأخرى. وهذه العلاقات الترابطية إنما تشعر بها عن طريق آثارها ونتائجها"[٣٨] ومعنى ذلك أنَّ القيمة الدلالية ليس لها وجود خارج نظام العلاقات الذي يكفل تشكيلها الذهني.

ونشير هنا إلى أنَّ قيمة البنية لا تظهر من خلال العنصر أو الكل وإنّما مناط الفائدة هو:"العلاقات القائمة بين العناصر، على اعتبار أنَّ الكل ليس إلا الناتج المترتب على تلك العلاقات أو التآلفات مع ملاحظة أنَّ قانون هذه العلاقات ليس إلا قانون النسق نفسه"[٣٩] ومعنى ذلك أنَّ:المكونات تجتمع لتعطي في مجموعها خصائص أكثر وأشمل من مجموع ما هو في كل واحدة منها، ولذلك فالبنية تختلف عن الحاصل الكلي للجمع؛ لأنَّ كل مكون من مكوناتها لا يحمل نفس الخصائص إلا في داخل هذه الوحدة، وإذا خرج عنها فقد نصيبه من هاتيك الخصائص الشمولية[٤٠] من هنا يبدو أن التركيب يؤسس على قواعد توافق هيكل البناء النحوي وتشكل معايير النحو قاعدة تحكم بنية النص في تجانس يرجع إلى وجه من الاتساق الذي يحقق مستويات الدلالة فكل لفظة تؤلف وحدة في بناء عضوي تحكمه أنظمة العلاقات.

وتعد فكرة العلاقات التي تنظر إلى الكلمة في نظامها الكلي جوهر نظرية النحو الجرجاني فتنطوي على نسق يؤدي فيه كل عنصر دوره الوظيفي. وهذا يبدي أهمية الموقعية في إحكام النظام البنائي الذي يقدر وظيفة الكلمة في الإنجاز اللغوي، وبذلك يؤدي كل عنصر وظيفة تسهم في بنية النص على قاعدة التواصل التي تحكمها ارتباطات التلازم. ومن المقرر:"أن العلامة اللغوية لا تعني في عزلة ولا تمتلك خصائص محددة نهائية، بل تعني ضمن نظام من العلاقات تنتسب إليه وتندرج فيه. وما يتضمنه هذا المنطلق، إذا نقل من مستوى العلامة اللغوية إلى مستوى المكونات الأكثر شمولية لعملية الإبداع الشعري، هو أنَّ

مفاهيم مثل "النمو العضوي" أو "الحركة" أو "التماسك" أو "التكامل" لا تعني في عزلة ولا تشكل قيمة أدبية إيجابية، وأن قيمتها الفعلية تنبع من البنية الكلية التي تتبلور فيها أو تختفي منها وأنَّ لغيابها دلالات لا تقل جوهرية عن وجودها"[٤١] وهذا يظهر أن العلامة التي ينتظمها مدلول يبدو قاراً في تشكيلها ينزاح حين يلتقط ويؤلف منه المجهول المرتدي للغياب والمسكون بغرابة الاختلاف. إنه يموج في أفق رحب يتخطى أبنية الواقع منتجاً نموذجه الخاص عبر سيرورة تتوخى مغادرة المألوف للتواصل مع الآخر.

ثالثاً: النحو البلاغي بين تحولات البنية وتشكيل الدلالة

يصدر النحو البلاغي عن منهج مفاده القبض على لعبة المشاكلة والاختلاف بحثاً عن البنى النهائية المنظمة لنصوصية النص. ويلاحظ أنّه يدخل مناطق الإيحاء التي تثري الإمكانات الدلالية التي يتمتع فيها النص. وبهذا يكون إفصاحا عن وظائف البنية لتعيين طرق انتظامها وتحقيق مقاصدها. ويمتحن التحولات ويفسر الوظائف التداولية المؤسسة على عدد المتغيرات والمعاني التي تضيفها، فهو بيان للمبادئ التي تحكم ترتيب النص وتكشف النسق الذي يتوخاه ائتلاف الأبنية وصولاً للدلالة الكبرى التي تنتمي إليها، وهكذا يرصد التحولات البنائية المحتكمة لأنظمة الضبط الذاتي ضمن مفاهيم التعاقب والتحول، وتبقى دراسة مستويات التشكيل البنائي غير كافية إذا لم تقترن برصد العلاقات المتغيرة. فالنحو البلاغي قراءة لمستويات الأبنية بطريقة تمتحن التحولات الأسلوبية الناجمة عن سلطة النحو وتفصح عن طبقات المعنى التي تحكم وظائف البنى في انحرافها عن مستوى الأصل.

وقد أظهر الرماني مستويات البلاغة بقوله:"فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ما هو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنّه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنَّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[٤٢] وهكذا تعني البلاغة في تعيين مستويات النظام اللغوي كشفاً عن وظائف كل منظومة وقدرتها على التأثير في نفس المتلقي. وتحتكم المنظومة اللغوية إلى منهج يختار العناصر ويضع لها مستوى داخلياً يعتمد مناطق البلاغة موظفاً النحو توخياً للتداعي الذي يصل الدال بمدلوله.

وتأخذ مستويات البلاغة تشكيلها عبر فرادة الأبنية في فضاء نصي متعدد الأبعاد يوظف اللغة نحو تحول يهيمن على طبقات المعنى. ومن هنا يتضح أنَّ: "الرفع والنصب والجر والجزم ما دخلت إلا لتحدد مدلول الكلمة على المعنى المراد، ومناسبتها للمقام الذي سيقت فيه، كل ذلك بأسلوب عربي رشيق رصين، كما أنَّ النحو لا يعنى باللفظة المفردة، فهذه اللفظة، لا يمكن أن تكون فاعلاً أو مفعولاً، أو متعلقات الجملة حتى تدخل في سياق يحدد الغرض منها، ويبين ما قصد بها، وكذا البلاغة فإنَّها تعنى بالتراكيب أكثر من عنايتها بالمفردات، فإذا أضيفت كلمة إلى أخرى استطعنا أنْ نحدد ما وراءها من ظلال وما حوته من معان وقد تكون حقيقية وقد تكون مجازية"[٤٣] وهكذا يبدو أنَّ النحو البلاغي يعتني بالسياق المرجعي الذي يظهر الأنساق ضمن حوار جدلي يرصد تعدد الرؤى داخل قناع المعنى. إنّه بيان للمحور الدلالي الذي يكشف المتصور الذهني للهيكل الذي ينظم سلوك المفردات في نظام يناسب المعنى.

النحو البلاغي وتحولات البنية

يؤلف هذا النحو رصد نماذج التحويل استشرافا للمقصد المراد من إجراء التحويلات الأسلوبية. ويسهم البحث عن أثر نحوية التركيب في بيان التحويلات وفهم أسرارها في سياق نظرة دلالية تعد النص علاقات متحولة وفق مستويات الدلالة المرادة. ولعلَّ مما يستحق الذكر أنَّ التحول يعني إعادة توزيع الوظائف في فضاء جديد يستثمر

الشكل تحقيقا للمقصد. ويفضي رصد مجموع الانحرافات إلى تبيان ملامح كسر التوقع وما ينجم عنه من فروق في مستويات تشكيل الدلالة. فالخروج عن المستوى المألوف في ترتيب رموز اللغة يؤدي إلى ملامح لافتة تتخطى الأنماط الأولية الواردة على النسق الأصل. ويبدو أنَّ التنوع البنائي الناتج عن تعديل البنى يتضمن مسافة توتر تسهم في ارتياد الخفاء المعبر عن التجلي ويبقى توظيف عناصر التحويل ملمحاً فارقا يعين المعاني الدلالية المرادة استجابة لعناصر التحويل ونوعها. فكسر التوقع المؤتلف عبر درجات النحوية يعمق الفجوة ويصنع فضاء لغويا يكثف الشعرية.

وقد أبان الجرجاني عن اختلاف المعنى بسبب اختلاف طرق التشكيل الأسلوبي للكلمات لأنه:"لا سبيل إلى أنْ تجيء إلى معنى بيت من الشعر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعته حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور، ولا يغرنك قول الناس": قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه، فإنه تسامح منهم والمراد أنَّه أدى الغرض فأمّا أنْ يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون في الكلام الأول ففي غاية الإحالة"[٤٤] وهذا يبدي أثر التغيرات الأسلوبية في تشكيل المعنى عبر التراسل اللغوي الذي ينتظمه التشاكل والاختلاف. وبهذا يتجاوز النص فضاءه باحثاً عن سيرورة خاصة تجتاح مواقع المؤتلف نحو بناء يشكل لحظات المختلف، وتنفي الرموز ذاتها لتدخل سياجاً دائرياً عائداً إلى بناء الفراغات الكامنة في استعادة التشابه عبر الاختلاف. وهذه خطوة لملء المساحات النصية بطريقة تتيح عالما غير متناه يقتنص التداول الدلالي لتشكيل التماسك الذي يقبض تضاريس التوحد البنائي. والملاحظ أنَّ رصد المرونة المتاحة لطرق التعبير اللغوي تعني تفسير طرق الأداء بحثاً عن وجوه الإبداع وإرجاعها لتحولات تفصح عن أسرار الخروج عن بنية الأصل، وهكذا ينهض هذا النحو بدراسة اللغة وصولاً إلى نصوصية النص بقراءة الأداء ومتابعة حركات التحول لاكتناه طرق إنتاج الدلالة. فهو بيان للعبة اللغة في التماهي ضمن مرايا تكسب العناصر مضمونها الدلالي توضيحاً للنسيج من وجوهه المختلفة.

ويعتني هذا النحو بالانزياح الدلالي المكون للتنوع والاختلاف بحثاً عن مرجعيات التخيل وإحاطة بالمفاصل التي تكشف المستوى الوظيفي الموجه لمستويات النص. وغني عن البيان أنَّه يوغل في تتبع ملامح التمرد والانحراف لاجتياح مناطق الإنتاج الدلالي التي تختزن اللغة الشعرية. وبهذا يرصد مفارقة الرمز للدلالة المألوفة نحو تحرر يتخطى العلاقات الأولية ويبتدع عالماً خاصاً به. ويلتقي هذا الفهم للنحو البلاغي مع اتجاهات النظم الجرجاني إذ يلاحظ أنَّ:"البحث في النظم عند عبد القاهر كان ذا منحيين أو اتجاهين اثنين: أولهما بلاغي والثاني نحوي. وهذه النظرة تتضمن في الواقع الاعتراف بأنَّ اللغة تنطوي على قوى ذاتية توجه خلقها وفاعليتها، وأنَّ لها إيحاءات بعيدة تكثف دلالات هامة في نموها وشاعريتها. وإنَّنا حين نقرأ اللغة ومؤداها قراءة شاعرية أو حين تتأمل صياغتها ونظمها وطريقة تأليفها تاملاً يفيد في توضيح جمالياتها، لا نستطيع أنْ نتغاضى عن هذا النسيج المهم من الإيحاءات الأدبية والمواقف الرمزية، أو نتجاهل هذه المزايا الموضعية التي تتأتى في مقام دون مقام أو تعرض في كلام دون كلام"[٤٥]. وهكذا يتقصى النحو البلاغي الفراغات المعرفية ويجعل منها وظيفة في تبيان مجهول البيان الذي يتضمن مقصداً يتمثل في إثارة جدل الاحتمال لتحقيق الغائب المتخفي في طبقات النص، وهذا يؤدي إلى متابعة علاقات التحكم الذاتي المكونة للمعنى.

وصفوة القول أنَّ تحولات الرتبة المتَّصلة بالموقع الذي تأخذه الكلمة في جملتها وتغيرات الحذف والزيادة تسهم في تحويل مستويات البنية استجابة للإبانة عن المقصد وفق مطالب النحو الجمالي. وتظهر الدراسات الأسلوبية فكرة مؤداها:" ليست تحولات البنية للوصول إلى الهيكل الأسلوبي مجرد ربط الشكل بالمضمون، أو مجرد ربط مجموعة من الألفاظ كيفما جاء واتفق، وإنما التحول

يتجاوز عملية الضم إلى عملية التعليق، حيث تلعب العلاقات النحوية دوراً بالغاً إخبارياً وإبداعيا، إنَّ دخول النحو بكل حقائقه التحويلية إلى منطقة الأدبية، قد ساعد على تحقيق معنى النظم سطحاً وعمقاً، وغياب التعليق النحوي يؤدي إلى افتقاد الناتج الدلالي"[٤٦] وهكذا يأتي النحو البلاغي توضيحاً لاستراتيجيات النص بغية تعيين مقاصد التحول الناتجة عن تغيرات البنية. وهذا توضيح لمجموعة التقنيات الناجمة عن الانحراف الذي يشكل نظاماً تحويلياً يرتب البنى ابتغاء تبيان وظائفها التعبيرية. ويتحرى هذا النحو رصد نقاط الإشعاع الدلالي المكونة لمفاصل تنتظم التعدد المفضي إلى التوحد في مستويات تكشف الرؤية الكامنة.

وتتعدد الأبعاد المتحكمة في وظائف النسق وتنطوي على مسألة الانحراف الأسلوبي الذي يهيمن على المقصد عبر تغيير في أشكال المتصور الذهني، ومن الواضح أن دراسة سلوك الكلمة واختيارها يؤثر في إنتاج البنى بطريقة تفرض نفسها توخياً لاكتناه طرق بناء نصوصية النص. ومن المقرر أنَّ دراسة الانحراف الأسلوبي تأتي رصداً لطرق تمرد النص على القواعد النحوية التي تنص على بنية الأصل والاتجاه نحو وظائف تكشف فرادة التشكيل، وبهذا يتبين:"أنَّ التركيب الأدائي ينحرف عن النمط التقعيدي بأن يتضمن بعض الملامح التي ينفرد بها عما سواه، ولا ينبغي أنْ ننظر إلى تلك الانحرافات على أنَّها رخص شعرية أو ابتداع فردي وإنما هي في الواقع نتاج براعة استخدام المادة اللغوية المتوفرة وتوظيفها الذكي للإمكانات الكامنة في اللغة".[٤٧]

وانطلاقا من هذا الأساس يلاحظ أن النحو الجرجاني يشكل نزوعاً معرفيا لاكتناه حركة العناصر إظهاراً لدور الموقع في الهيمنة على المستوى الدلالي ويترتب على هذا الغرض تحليل مجموعة القواعد المكونة للشكل لرصد فضاء المتغيرات في تكوينها للمنجز.

ويفرض استقراء ملامح النسق توضيحا لقيم التماثل المفسرة لمجموعة الوظائف التي تصب في الوحدة الدلالية الكبرى وهكذا: "يأتي علم النحو ليجسم البعد الكوني وهو بعد العمق فيخرق حقول التداخل والتباعد ليصبح مركز ثقل يستقطب جاذبية الأسلوبية على نوع ما من التناظر"[٤٨] بهذا يقتنص جامع التباين المؤسس على الاختلاف الذي ينسج لعبة التداعيات الكامنة المفعمة بقوى التعبير المؤلف لدلالات المنجز اللغوي.

وقد تفطن الجرجاني إلى أهمية جمع المتشابهات في نسق مشترك يظهر ملامح الحسن البلاغي ويرتب الأحكام في اتّساق، وبيان ذلك عنده أنَّ:"هذا باب ينبغي أنْ تراعيه، وأنْ تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة منه في لفظه، ممـــا هي في نظمـــه"[٤٩] وهكذا يكون النحو البلاغي توضيحاً للقيم الأسلوبية التي ترجع إليها أبنية النص في تآلفها إذ يشكل منهجية في البحث عن أساليب توزيع البنى. ويسعى إلى توضيح مواقعها إسهاماً في القبض على تنوع المكونات والإفصاح عن درجات تأثيرها. وبهذا يكشف المستوى البنائي الذي يتضمن زوايا الرؤية المكونة لصور النشاط المعرفي. ويظهر هذا النحو المرجعية التي تعيد إليها الرؤيا المختفية عبر التشكيل اللغوي اختفاء يكثف مستويات الدلالة.

ويتصدى هذا النحو لمقاربة النص مقاربة داخلية تظهر أنماط الفرادة في تشكيله إذ يتخطى تضاريس البنية اللفظية ليلتقي بمغامرة البحث عن فضاء الدال عبر عناده في تكوين غرابة المدلول، وهكذا يعاين الإمكانات اللغوية مظهراً أسرار تحولاتها في ضوء الإطار العام الذي تتحرك فيه، ويدرس أشكال الانسجام والاختلاف بطريقة تفضي إلى بيان الدور الوظيفي الذي يؤديه العنصر في تأسيس الدلالة. ويعتني هذا النحو باكتناه العلاقات كشفاً لأثر البنى في تأليف النسق. ويقرأ فرادة الأبنية بحثاً عن الفراغ المعرفي وأثره في إيجاد مسافة التوتر، وبهذا يتضح أن هذا النحو يرصد التحويلات التي تحدث التأثير

عبر توظيف خاص يستثمر الظلال الإيحائية المتصلة بفضاء الكلمة، ويتوخى هذا النحو بيان الأساليب التي تكسب الأبنية جاذبية تضيء تضاريس النص مؤلفة مشهداً درامياً تتلاقى عليه لعبة اللغة.

الهوامش

(١) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٢.
(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١١٢.
(٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٨-٨٩.
(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٧٧.
(٥) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٤٢.
(٦) كريستل، التعريف بعلم اللغة، ص١٢٠-١٢١.
(٧) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٦-٧.
(٨) علام، مدخل الى البلاغة العربية، ص١٨٦-١٨٧.
(٩) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٠٢.
(١٠) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٠٤.
(١١) مصطفى، إحياء النحو، ص٢-٣.
(١٢) سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص٣٦٥.
(١٣) أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص١٦٨.
(١٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٣-٢٤.
(١٥) سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص ٣٦٢.
(١٦) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص١٩.
(١٧) حسان، الأصول، ص٣٤٩.
(١٨) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٠-٤١.
(١٩) الموسى، نظرية النحو العربي، ص٢٩.
(٢٠) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٦٩.
(٢١) تشومسكي، البنى النحوية، ص١٣٢.
(٢٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٣٢١.
(٢٣) مبارك، مدخل للسانيات سوسير، ص١١٠-١١١، ط١.
(٢٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤١-٤٤.
(٢٥) أبو ديب، نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر، ص١١٩، مواقف، عدد ٣٢.
(٢٦) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤١٥.
(٢٧) دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص١٥٥.
(٢٨) سورة القمر، الآية (١٢).
(٢٩) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٠.
(٣٠) أبو موسى، مدخل الى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص٥٨.
(٣١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣١٥-٣١٦.
(٣٢) أبو ناضر، الألسنية والنقد في النظرية والممارسة، ص٢٠.
(٣٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٧٠.
(٣٤) عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، ص ١٠٦.
(٣٥) ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية، ص ٢٤٥.
(٣٦) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢١٦.
(٣٧) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٨.
(٣٨) أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص٦٩.
(٣٩) ابراهيم، مشكلة البنية، ص ٣٤.
(٤٠) الغذامي، الخطيئة والتكفير، ص٣٢.
(٤١) أبو ديب، دراسات في بنية القصيدة الحديثة، الأقلام، ع٥.
(٤٢) الرماني، النكت في إعجازالقرآن، ص ٦٩.
(٤٣) الشيخ، البلاغة وقضايا المشترك اللفظي، ص١١.
(٤٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٠١-٢٠٢.
(٤٥) سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، ص١٢٦.
(٤٦) عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، ص١٢٤.
(٤٧) عيد، البحث الأسلوبي، ص١٤٨.
(٤٨) المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص٥١.
(٤٩) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٧٧.

المصادر والمراجع

إبراهيم، زكريا، ١٩٩٠، مشكلة البنية، مكتبة مصر.

أبو ديب، كمال، ١٩٨٧، دراسات في بنية القصيدة الحديثة، الأقلام، عدد (٥)، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، سنة (٢٢).

أبو ديب، كمال، ١٩٧٨، نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر، مواقف، عدد٣٢، صيف.

أبو زيد، نصر حامد، ١٩٩٤، إشكاليات القراءة وآليات التاويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط (٣).

أبو موسى، محمد محمد، ١٩٩٨، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط (١).

أبو ناضر، موريس، ١٩٧٩، الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، دار النهار، بيروت.

أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ١٩٧٥، مكتبة الشباب، القاهرة.

تشومسكي، البنى النحوية، دائرة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ترجمة: يؤيل يوسف، ١٩٨٧، ط (١).

ثامر، فاضل، ١٩٩٤، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت ط (١).

الجرجاني،عبد القاهر، أسرار البلاغة، نشر دار المعارف، بيروت، ١٩٧٨م.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، ١٩٨١، نشر دار المعرفة، بيروت.

حسان، تمام، ١٩٨٨، الأصول، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

دي سوسير، فردينان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، ١٩٨٤، دار نعمان للثقافة.

الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر)، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.

سلامة، إبراهيم، ١٩٥٢، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، ط (٢).

سلوم، تامر، ١٩٨٣، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، سورية، ط (١).

الشيخ، عبد الواحد، ١٩٨٦، البلاغة وقضايا المشترك اللفظي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

عبد البديع، لطفي، ١٩٧٠، التركيب اللغوي للأدب، مكتبة النهضة المصرية، ط (١).

عبد المطلب، محمد، ١٩٩٧، البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان، ط (١).

علام، عبد الواحد، ١٩٨٩، مدخل إلى البلاغة العربية، دار الثقافة العربية، القاهرة.

عيد، رجاء، ١٩٩٣، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، دار المعارف، الإسكندرية.

الغذامي، عبد الله، ١٩٨٥، الخطيئة والتكفير، جدة، المملكة العربية السعودية، ط(١).

كريستل، دافيد، التعريف بعلم اللغة، ترجمة: حلمي خليل، ١٩٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط (١).

مبارك، حنون، ١٩٨٧، مدخل للسانيات سوسير، دار توبقال، المغرب، ط (١).

المسدي، عبد السلام، ١٩٧٧، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس.

مصطفى، إبراهيم، ١٩٣٧، إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الموسى، نهاد، ١٩٨٧، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، عمان، الأردن، ط (١).

Al-Jurjani's Syntactic Theory: A Structural Approach to Investigating the Relationship Between Structural Change and Semantic Structure

A. Anbar*

Abstract

This research is motivated by the belief that Al-Jurjani's syntactic approach has a structural base and that its tools of investigation can reveal changes in meaning which result from changes in structure. It seems that Al-Jurjani's subjective was to respond to those grammarians who underscored the role of syntax and restricted it to case basic principles of syntactic theorization at the time. In short, Al-Jurjani's approach was different from these of other grammarians in that he utilized meaning to understand form, whereas they used from as a vehicle to address meaning. In effect, Al-Jurjani's syntactic objective was two-fold:

1. It attempted to establish criteria for grammaticality which can be used to distinguish well-formed sentences from ill-formed ones.
2. It attempted to specify the values implied in deep structures.

This paper argues that Al-Jurjani has touched on some issues which were brought into focus by modern linguistics. His view of language as a set of relations was similar to that of Ferdinad de Saussure. Al-Jurjani's perspective of relation underlying the language system was an attempt to explore the various features of the text. Moreover, the paper suggests that Al-Jurjani's theory has given special emphasis to stylistics with regard to showing the rhetoric value of the text and highlighting those information gaps implicit in it. Al-Jurjani's approach surpassed form to embrace meaning. He proposed criteria to examine the various meanings compatible with the multiplicity of forms.

The paper lent itself to three dimensions: 1) The concept of Al-Jurjani's syntax, 2) Al-Jurjani's approach in examining textual features, and 3) Rhetoric syntax *vis-à-vis* syntactic structure and semantic manifestation.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 23/11/2000 and Accepted for Publication on 8/8/2001.